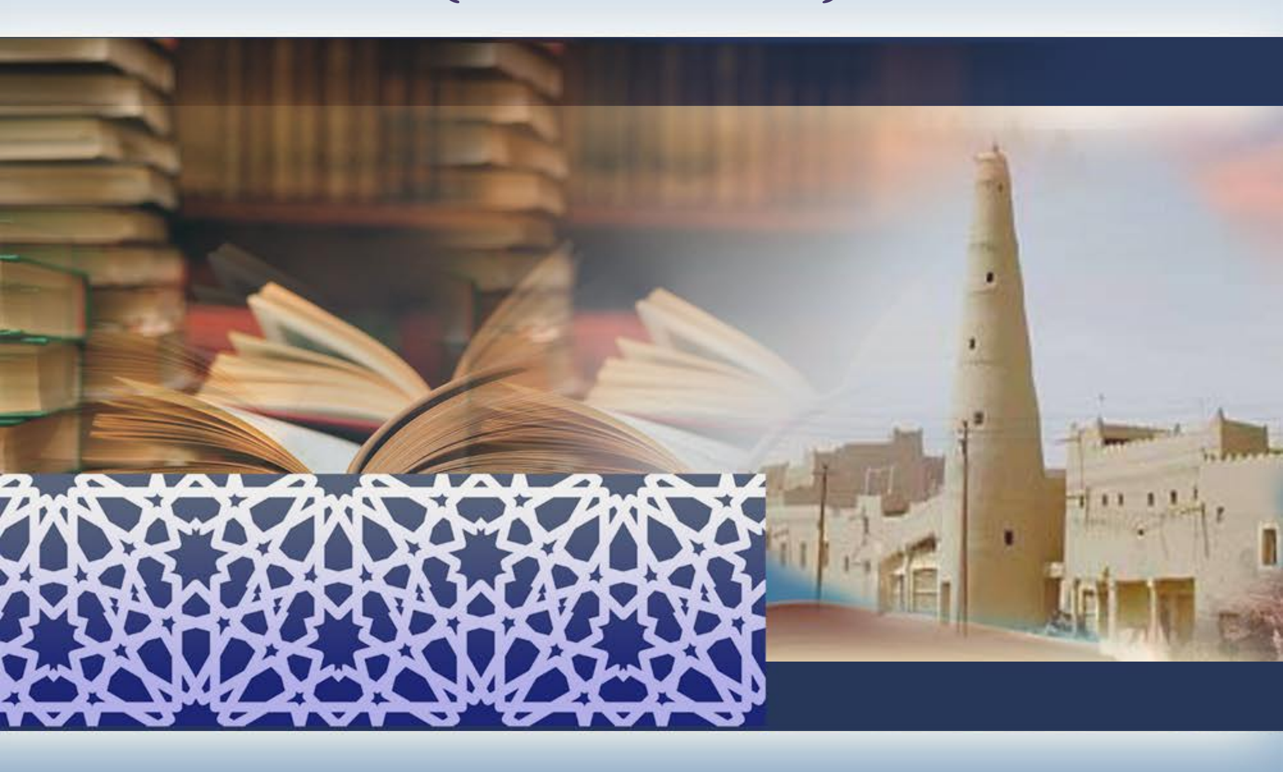
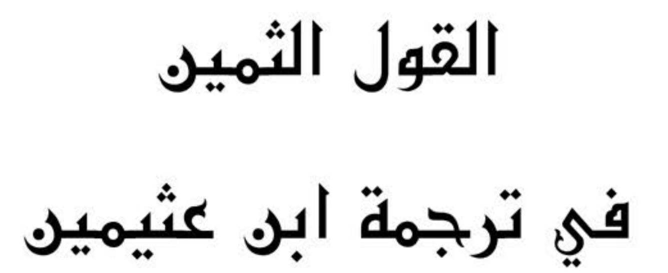
القول الثمين
في
ترجمة ابن عثيمين
(١٣٤٧- ١٤٢١)



كتبه تلميذه
أ.د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم (سابقًا)



القول الثمين في ترجمة ابن عثيمين

(١٣٤٧ ـ ١٤٢١)

كتبه تلميذه

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة القصيم (سابقًا)

الشيخ محمد بن صالح العثيمين

❖ اسمه، ونسبه، ومولده:

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان، الملقب بعثيمين، من آل مقبل، من الوهبة، من تميم.

ولد ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، سنة سبعٍ وأربعين وثلاثمائة وألف، في مدينة عنيزة، إحدى حواضر منطقة القصيم.

❖ بيئته الاجتماعية، والعلمية، والسياسية:

ولد الشيخ في بيت دين وصلاح. وكانت بلدته عنيزة من قصبات العلم والأدب والتجارة، في نجد، تزخر بالعلماء، والشعراء، وتتميز على كثير من المدن النجدية بالانفتاح التجاري، والتواصل العلمي، مع حواضر العالم الإسلامي في الحجاز، والشام، والعراق، ومصر، والهند، كما تدل على ذلك تراجم علمائها، وأعيانها. وقد أثر هذا الانفتاح المبكر على شخصية الشيخ، وسعة أفقه.

وقد اتسمت الأحوال السياسية الداخلية طيلة حياة الشيخ بالاستقرار، واستتباب الأمن، والتحسن المعيشي المطرد. فكانت سنة ولادته موافقة لآخر الحروب الكبار التي خاضها الملك عبد العزيز آل سعود، رحمه الله، وهي موقعة السبلة، التي قضى فيها على أخطر الفتن الداخلية سنة ١٣٤٧ هـ،

ثم أعقبها الإعلان عن توحيد المملكة العربية السعودية، فاجتمعت الكلمة، وأمنت السبل. ثم منَّ الله على البلاد باكتشاف الثروة النفطية، فتيسرت سبل المعيشة، وشهد الشيخ، رحمه الله، النقلة الحضارية الواسعة التي جرت في البلاد، من النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية، وما تستتبع من نوازل تفرض نفسها على الفقيه المواكب، وتحمله على الاجتهاد. وقد كان الشيخ، بحق، أحد الفقهاء المسددين الذين أسهموا في ترقية المجتمع الإسلامي الصاعد في المملكة وغيرها، وتكييف النوازل على القواعد الشرعية.

❖ طلبه للعلم:

استهل الشيخ، رحمه الله، مسيرته العلمية، بكتاب الله تعالى، فقرأه على جده لأمه، عبد الرحمن بن سليمان الدامغ، رحمه الله، وحفظه على المعلم المعروف، علي بن عبد الله الشحيتان، رحمه الله. وأتقن الخط والحساب. ثم سمت به همته صوب عالم وقته، وسابق عصره، علامة القصيم، العالم الرباني، المفسر، الفقيه، المربي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦) رحمه الله، فدفعه إلى أحد أخص تلاميذه، وهو الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع (١٣١٧ ـ ١٣٨٧) رحمه الله، وكذلك الشيخ علي بن حمد الصالحي (١٣٣٣ ـ ١٤١٥) رحمه الله، اللذين أقامهما الشيخ عبد الرحمن لتهيئة صغار الطلبة، وتدريسهم علوم الآلة، ومبادئ العلوم الشرعية. وكان حريصاً على التحصيل منذ صباه؛ فقد حُدِّثتُ عن بعض ذوي الشيخ عبد الله بن محمد بن مانع (١٢٨٤ ـ ١٣٦٠) رحمه الله، قاضي عنيزة، أن الشيخ محمداً كان يأتي بيتهم صباحاً، وهو يحمل كتبه

وأوراقه في قفة على رأسه، فيستأذن، ويرقى إلى المكتبة، فيمكث فيها إلى أذان الظهر، ثم يسلم ويخرج. وهو إذ ذاك لم يبلغ الحلم. ثم نهل من معين علم الشيخ عبد الرحمن السعدي، وأدبه، وسمته، وتخرج به في مختلف الفنون، وتأثر بطريقته، وتأصيله، واتباعه للدليل. كما تأثر بحسن عرضه، وجودة تقريره، واستعماله التقسيمات النافعة، والقواعد الجامعة، التي تقرب العلم، بأيسر الطرق الأسباب. وظل ملازماً له، وإن تخلل ذلك فترة انشغل فيها، رحمه الله، مع والده بالفلاحة.

وكان الشيخ عبد الرحمن حفياً به، يتوسم فيه النجابة، حتى إنه أقنع والده حين أراد الانتقال إلى الرياض أن يستبقيه في عنيزة، ولم يأذن له بالسفر إلى الرياض إلا حين افتتح (معهد الرياض العلمي) سنة ١٣٧٢هـ، فالتحق به، وتجاوزه في سنتين فقط، لكونه صنف في السنة الثانية بسبب حصيلته العلمية، ثم اختصر ما بقي بما كان يسمى حينذاك (نظام القفز) حيث يدرس في الإجازة الصيفية مقررات السنة التالية، ويختبر فيها في الدور الثاني. فعاد إلى عنيزة مدرساً في (معهد عنيزة العلمي) سنة ١٣٧٤هـ، واستأنف دراسته على شيخه، وفي ذات الوقت انتسب في كلية الشريعة في الرياض، حتى تخرج منها. وفي الرياض، عاصمة المملكة، وعاصمة العلم والعلماء في نجد، تتلمذ على عالمين فذين:

أحدهما: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رحمه الله (١٣٣٠ ـ ١٤٢٠)، فاستفاد منه العناية بالحديث، وعلومه. وظل على صلة وثيقة به، يزوره، ويستشيره في القضايا العامة والخاصة، إلى وفاته، مع محبة وإكرام متبادل، رحمهما الله.

الثاني: فضيلة الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، رحمه الله، (١٣٢٥ ـ ١٣٩٣) فاستفاد منه في علم الأصول والتفسير.

❖ نشره للعلم:

حبب إليه التعليم، فكان ربيع قلبه، ومهوى فؤاده، وهمه الدائم في شغله وفراغه، وظعنه وإقامته. جلس للتدريس أول مرة سنة ١٣٧١هـ، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. ثم اشتغل بالتدريس النظامي منذ سنة ١٣٧٤هـ في المعهد العلمي. وحل محل شيخه عبد الرحمن السعدي في التدريس، والخطابة في الجامع الكبير في عنيزة، منذ وفاته سنة ١٣٧٦هـ، وظل دؤوباً على هذه السيرة إلى صيف سنة ١٤٢١هـ. فكان بين أول درس عقده سنة ١٣٧١، وآخر درس ألقاه في المسجد الحرام في ختام شهر رمضان من سنة ١٤٢١هـ نصف قرن. وكانت دروسه الراتبة على ثلاثة أنحاء:

١ ـ درس عام لجمهور المصلين، إثر صلاة العصر من كل يوم، سوى الجمعة، بشرح مختصر مفيد لبعض المتون الحديثية، كبلوغ المرام، ورياض الصالحين. كما كان له درسٌ عام بين أذان العشاء والإقامة في تفسير القرآن وغيره، كل ليلة، ظل مستمراً إلى نحو عام ١٤٠٠هـ، ثم صرفه إلى درس علمي للطلبة بعد ذلك.

٢ ـ درسان علميان يوميان؛ أحدهما بين العشائين، والثاني بين أذان العشاء والإقامة، لطلبة العلم، طوال العام، في مختلف الفنون الشرعية،

والعربية، من توحيد، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وفرائض، ومصطلح، ونحو، وبلاغة، وسيرة.

٣ ـ دروس صباحية في الإجازات الصيفية لمدة أربع ساعات متصلة، من الساعة السابعة، حتى الحادية عشرة، كان يعقدها في مكتبة الجامع الكبير (مكتبة عنيزة الوطنية) يحضرها خاصة طلبة العلم، على مدار الأسبوع، سوى الثلاثاء والجمعة. ثم لما كثر الطلبة في العقدين الأخيرين من عمره نقلها إلى الجامع نفسه، واستثنى الجمعة فقط. ثم جعلها لما كثرت أعماله ثلاث ساعات؛ من الثامنة، حتى الحادية عشرة، ثم قلصها إلى العاشرة.

وكان، رحمه الله، شديد الحرص على انتظام الدروس، ودوامها، لا يقدم عليها شغلاً، ولا يؤْثر عليها قربة، إلا ما لابد له منه. وأذكر أنه أصيب نحو سنة ١٤٠٢هـ بالتهاب في ركبته، لحقه منه ألم شديد، حتى تعذر عليه أن يصلي في المسجد أياماً، وانقطع الدرس بطبيعة الحال، فكنا إذا عدناه في منزله، وهو على تلك الحال، والألم بادٍ على محياه، يبدي تألمه من انقطاع الدرس، ويعرض علينا عقده في منزله.

ولم يفت في عضده انفضاض الناس، وزهدهم في العلم، وقلة الطلبة، في أواخر التسعينيات الهجرية، حتى لقد رأيته أكثر من مرة، وليس بين يديه حين ابتداء الدرس سوى طالب أو طالبين فقط! فما يمنعه ذلك من حسن التقرير، والاستطراد، والتفصيل، حتى لكأن المكان غاص بطلاب العلم. وكان يحث من يلقاه من النابهين على الحضور، ويشجعهم عليه.

فلما صبر وصابر، واجتهد وثابر، مما ينم عن صدق نيته، ونبل مقصده، فتح الله له فتحاً مبيناً، وجعل أفئدة الناس تهوي إليه من أصقاع الأرض، من مختلف الجنسيات والأعراق، فلربما حزرت من بين يديه، في بعض دروس الفقه، بخمسمائة طالب أو يزيدون! وجعل لفتاويه ثقةً، وقبولاً، بين العام والخاص، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكان يبدي أسفه لموافقة اجتماعات هيئة كبار العلماء، التي تنعقد صيفاً في الطائف، لدروسه الصيفية، التي يتقاطر إليها الطلاب من كل مكان، ويود لو كانت اجتماعات الهيئة في أول الإجازة أو آخرها، ضناً بالدروس أن تنقطع، ومراعاةً للطلبة أن يتفرقوا، ولماَّ ينالوا مقصودهم.

وأما الدروس العارضة، فلا حصر لها، فإن عامة وقته كان في بذل العلم، ولكن أشير إلى أنواع منها:

١ ـ دروس المسجد الحرام التي يعقدها بعد التراويح، وعقيب صلاة الفجر في شهر رمضان. وكان يستمع لها الآلاف من آمي المسجد الحرام، من مختلف بلاد المسلمين، مما نشر له ذكراً في الخافقين.

٢ ـ دروس في المسجد النبوي، وفي مدينة الرياض والطائف، أثناء وجوده هناك.

٣ ـ دروس عبر المذياع، من خلال إذاعة القرآن الكريم، كبرنامج (من أحكام القرآن)، وفتاوى (نور على الدرب)، و (سؤال على الهاتف)، وأحاديث إذاعية في موضوعات متنوعة.

٤ ـ محاضرات عامة في الجوامع، والجامعات، والمدارس، والمعاهد، والنوادي.

٥ ـ محاضرات هاتفية موجهة لأماكن شتى في الكرة الأرضية، فربما ارتبط به في أمريكا أكثر من سبعين مركزاً إسلامياً، من مختلف الولايات في محاضرة واحدة. ولربما اجتمع عليه في ليلة واحدة محاضرتان؛ إحداهما في بريطانيا، والأخرى في أمريكا. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وإلى جانب هذه الدروس الراتبة، والعارضة، ما تضمنه تلكم الشعيرة العظيمة، صلاة الجمعة، من خطبة عصماء، وغذاء روحي، وشرعي، ظل يغذي به مواطنيه لأكثر من خمسة وأربعين عاماً، من منبر الجامع الكبير في عنيزة، تبلغ نحو ألفين ومائتين وخمسين خطبة منبرية، سوى ما تخلل تلك الحقبة من خطب العيدين، والاستسقاء، والكسوف، مما لا يحصى. جعل الله ذلك في موازين حسناته.

ولا أدل على حرصه على نشر العلم، وبثه بين الناس من لزومه دروس رمضان، وفتاواه، في المسجد الحرام، حتى بعد استفحال مرضه، وبلوغ الجهد منه كل مبلغ، في العشر الأخير من شهر رمضان السابق لوفاته، رحمه الله، فظل يجيب على أسئلة المستفتين، حتى آخر ليلة من رمضان، وهو ممدد على سريره، وأجهزة التغذية موصولة بوريده، وهو يصل المسلمين بغذاء العلم والإيمان، ويجود بنَفَسِه، كما يجود بعلمه. رحمه الله رحمة واسعة.

❖ منهجه في التعليم:

كان لشيخنا، رحمه الله، منهجاً مميزاً في إلقاء الدروس، وترتيبها، ورث جلَّه من شيخه عبد الرحمن السعدي، رحمهما الله. فقد كان نظام التعليم في عامة البلاد النجدية يعتمد أسلوب القراءة على الشيخ؛ بأن يختار طالب العلم، متناً معيناً، في فن من الفنون، ويستأذن شيخه في قراءته عليه، فيأذن له، فيختص الطالب بهذا المتن أصلاً، وإن شاركه غيره. ثم يعلق الشيخ على بعض ما يرد أو يشرح ما يستغلق من مفردات وتراكيب. فلما قدم الشيخ محمد أمين بن عبدي الشنقيطي، رحمه الله (١٢٨٩ ـ ١٣٥١) عنيزة، ودرس بها، اعتمد طريقة التقرير، وهو أن يقرر الشيخ على عموم الطلبة متناً، ثم يقوم بشرحه جملةً جملة، كما هي الطريقة المتبعة في التعليم الحديث في المدارس النظامية. فاستفاد الشيخ عبد الرحمن هذه الطريقة من شيخه الشنقيطي، وزاد عليها بما فتح الله عليه من أساليب المناظرات العلمية بين المقالات المتعارضة. وعلى هذا المنهج المفيد جرى شيخنا، رحمه الله.

ومن أبرز الملامح الفنية العامة لمنهج شيخنا، رحمه الله، في دروسه، ما يلي:

١ ـ **تنويع الفنون:** فلا يكاد يوجد فن من الفنون الشرعية، أو العربية، إلا تناوله. فيجتمع في الأسبوع الواحد قرابة ستة متون، وربما تزيد. وكذلك الحال في الدروس الصيفية. ولا ريب أن لهذه الطريقة أثراً حميداً في تنشيط الطلاب، واتساع معارفهم، إلا أنها من وجه آخر تؤدي إلى إطالة مدة شرح كل متن على حدة، وانقطاع آخره عن أوله، وربما انقطع الطالب أو غادر البلد، قبل أن يتم المتن.

٢ ـ **الحفظ**: كان، رحمه الله، يحض الطلبة على حفظ المتون المقررة، كبلوغ المرام، وزاد المستقنع، والألفية، وغيرها. لكنه يكتفي بالسماع من عدد محدود في مستهل الدرس، يختارهم بصفة انتقائية.

٣ ـ **المناقشة**: كان من عادته المطردة أن يجعل بين يدي الدرس الجديد مناقشةً وبحثاً فيما جرى شرحه في الدرس السابق، بغرض الاستذكار، وحفز الطلبة على الاستعداد والتحضير، وربط السابق باللاحق.

٤ ـ **الإجابة على الأسئلة**: كان في أول الأمر يأذن بالسؤال أثناء الدرس فيما يشكل على الطالب ويجيب عليه. فلما كثر الطلبة، وكثرت المقاطعة، أرجأ الأسئلة إلى آخر الدرس. وفي بعض الدروس يأذن بثلاثة أسئلة عقيب الباب، أو الفصل.

٥ ـ **البحث العلمي**: كان يكلف طلابه أحياناً ببحث مسألة علمية محددة، عرضت أثناء الدرس، أو تخريج أحاديث معينة. ثم تقرأ عليها، ويعلق على البحث بما يراه.

٦ ـ **المشاورة**: كان من حسن عشرته لطلابه، أن يستشيرهم في ما يرغبون شرحه من المتون الجديدة، بعد الفراغ من متن معين. فإذا اختلفت آراؤهم عمد إلى التصويت، فأخذ بقول الأكثر، ولو على خلاف رأيه.

٧ ـ **الأدب والصيانة**: كانت دروسه حافلةً بالعلم النافع، والتقرير الرصين، لها حلاوة، وعليها مهابة وجلالة. وكان يصونها عن الجدال، والغيبة، والمزاح، وإن كان يتخللها أحياناً بعض الدعابات اللطيفة، وذكر بعض الحكايات الظريفة، بما يروح القلوب، ولا يخرج عن المقصود.

وكان لا يأذن بذكر الأسماء من العلماء، وغيرهم، في معرض البحث والنقاش في مسائل الخلاف، ويصرح بأن ذلك مخالف لمنهجه في الدرس. وكان ينهى طلابه عن الخوض في مسائل الشغب، وتصنيف الناس، والاشتغال بالقيل والقال. وربما أخرج من سكن الطلبة بعض من ابتلي بذلك.

٨ ـ **التلطف في إعلام الطلبة بانقطاع الدرس**، لعارض من سفر ونحوه: كان يرى أن للطلبة حقاً، فيخبرهم إذا عنَّ له شغل لابد منه، أن الدرس سيتوقف ليوم، أو يومين، أو أكثر، ولا يدعهم دون إخبار. ويتلطف في العرض، وربما عبر بالاستئذان، وربما قال مداعباً: (غانم مشغول غداً) فيظن الطلبة أنه يعرض باسم أحد طلبته المحببين، وإنما أراد نفسه، رحمه الله، وحسبك به غانماً.

وأما منهجه في تدريس كل فنٍ على حده، فيمكن تبين خصائصه فيما يلي:

❊ أولاً: العقيدة:

كان للشيخ، رحمه الله، عناية خاصة، وتدقيق، وتحرير لمسائل الاعتقاد. أوتي فيها بياناً شافياً، وشرحاً وافياً، وتقريراً واثقاً مقنعاً. وقد شرح، رحمه الله، جملةً كبيرة من المتون، والرسائل، والمنظومات، العقدية. منها: لمعة الاعتقاد لابن قدامة. العقيدة الواسطية، والحموية، والتدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية. والقصيدة النونية، والميمية، لابن القيم. والأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وكشف الشبهات، وكتاب التوحيد،

للإمام محمد بن عبد الوهاب. والدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، للسفاريني. بالإضافة إلى شرحه لمؤلفاته العقدية، مثل: فتح رب البرية بتلخيص الحموية، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، وعقيدة أهل السنة والجماعة، ونبذة في العقيدة الإسلامية. وبعض هذه المتون شرحه عدة مرات.

وقد اتسم منهجه في تدريس العقيدة بما يلي:

١ ـ تعظيم شأن الاعتقاد في نفوس الطلاب، ووصفه بالفقه الأكبر.

٢ ـ الالتزام التام بعقيدة أهل السنة والجماعة، والتحذير من الفرق الضالة.

٣ ـ الحرص على التأصيل، والاعتصام بالكتاب والسنة في هذه المقامات الخطيرة.

٤ ـ العناية بالآثار المسلكية للإيمان، وبيان ثمرات العقيدة على الفرد والأمة.

٥ ـ التقعيد، ووضع الضوابط، والتأكيد على اطراد المنهج.

٦ ـ مواجهة النوازل العقدية التي ألمت بالأمة الإسلامية في عصره، وما أكثرها، والرد على الشبهات.

*** ثانياً: التفسير:**

كان لشيخنا، رحمه الله، درس عام في تفسير القرآن، يلقيه على جماعة المسجد، بين الأذان والإقامة، من صلاة العشاء، في التسعينيات

الهجرية، حتى أتمه. وأما تدريسه للطلبة، فقد كان في مبدأ أمره يقرره من خلال شرحه وتعليقه على (تفسير الجلالين) في الدروس الصباحية، في الإجازة الصيفية، وبلغ موضعاً في سورة الزخرف. وقد استغرق في ذلك سنوات عديدة، بسبب تباعد نوبات الدرس. وأذكر أنه كان يعلق على الجلالين في منتصف التسعينيات الهجرية. ثم شرع في العقد الأخير من عمره، يفسر القرآن دون الالتزام بتفسير معين، وبلغ فيه موضعاً في سورة الأنعام.

وقد اتسم منهجه في التفسير بما يلي:

١ ـ ذكر وجوه القراءات السبعية. وقد كان، رحمه الله، يستصحب مصحفاً علق على هامشه وجوه القراءات.

٢ ـ بيان معاني المفردات، والتراكيب، من الناحية اللغوية.

٣ ـ الكلام على وجوه الإعراب، ومحامله على تنوع القراءات، إن وجدت.

٤ ـ ذكر المعنى الإجمالي للآية بعبارات سهلة واضحة، مستعيناً على تفسيرها بنظائرها من الآيات، ثم بالسنة.

٥ ـ حكاية الخلاف في التفسير إن وجد، أحياناً. وحمل اللفظ على المعنيين ما لم يوجد منافاة، وإلا لجأ إلى الترجيح.

٦ ـ اطراح الإسرائيليات، وعدم التعويل عليها.

٧ ـ العناية بقواعد التفسير، لينشأ عند الطالب ملكةُ تساعده على فهم النظائر.

٨ ـ الإكثار من استنباط الفوائد العقدية، والفقهية، والأصولية، والتربوية، وربط دلالة الآية بالواقع. وربما استنبط من الآية الواحدة عشرات الفوائد الأصلية والفرعية.

❋ ثالثاً: الحديث:

اعتنى الشيخ، رحمه الله، بأحاديث الأحكام، لنزعته الفقهية القوية، فدرَّس: بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ ابن حجر، وعمدة الأحكام، لعبد الغني المقدسي، ومنتقى الأخبار، للمجد ابن تيمية. وكان يبدي أسفه أنْ لم يتوفر في بداية الطلب على الاشتغال بعلم الحديث، رغم سعة اطلاعه، وضبطه لقواعد (مصطلح الحديث). وقد أفرد درساً في صحيح البخاري، وآخر في صحيح مسلم، يستنبط فيهما فوائد ثمينة، وفرائد نادرة. وشرَح الأربعين، ورياض الصالحين، للنووي، لجماعة المصلين بعد صلاة العصر.

وقد اتسم شرحه للحديث النبوي بما يلي:

١ ـ الكلام على ثبوته، وتخريجه، وما يتصل بذكره من أنواع علوم الحديث.

٢ ـ بيان الغامض من ألفاظه، وتراكيبه.

٣ ـ شرحه شرحاً إجمالياً بعبارات سهلة، واضحة، وافية.

٤ ـ التوسع في استنباط الفوائد والأحكام المتنوعة.

٥ ـ

❊ رابعاً: الفقه:

لا ريب أن من أخص صفات شيخنا، رحمه الله، عنايته بالفقه، وتحريره لمسائله، واجتهاداته في نوازله، مما نشر له ذكراً في العالمين، وصرف وجوه المستفتين إليه، لما لمسوه في تقريراته من حسن تصور، وحسن عرض، وقوة حجة وإقناع. وقد اشتغل الشيخ بمتن (زاد المستقنع) الذي يعد من أحسن وأجمع المختصرات في الفقه الحنبلي، فشرحه عدة مرات في حياته، وقدمه على ما سواه من متون المذهب، كدليل الطالب، وعمدة الفقه، وغيرها. كما كان يعلق على (الكافي) لابن قدامة، ويرجح ما يراه من الروايات والأوجه، ويثني على حسن ترتيبه، ويقرأ عليه في دروس عامة وخاصة.

وقد اتسم منهجه في تدريس الفقه بما يلي:

١ ـ اعتماد (زاد المستقنع) في تقرير مسائل الفقه، وتقديمه على غيره من كتب الأصحاب، لكثرة ما حوى من المسائل.

٢ ـ التأصيل، وتقديم النص والدليل، والانعتاق من ربقة التقليد.

٣ ـ العناية بالتعليل، ومراعاة المعاني، المقاصد، والِحكَم.

٤ ـ عرض الأقوال المختلفة في المسألة الواحدة، وتوجيه كل قول مع الاستقصاء لكل ما يؤيده من أدلة نصية، أو نظرية، ثم الترجيح، مع الجواب عن أدلة القول المرجوح. وله في ذلك صولات، وجولات، وقدم صدق.

٥ ـ حسن تصوير المسائل، وضرب الأمثلة المقربة، والقدرة على

تكييف النوازل وردها إلى نظائرها.

٦ ـ الميل إلى اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، غالباً.

٧ ـ العناية بالقواعد، والأصول، والضوابط، والفروق، والتقاسيم، وكل ما يعين على تقريب العلم وحفظه.

❋ خامساً: النحو، وعلوم العربية:

لشيخنا، رحمه الله، عناية بالنحو، وحسن تصور، وحذق، وتذوق. وقد شرح عدة متون ومنظومات نحوية، ابتداءً بالآجرومية، ومروراً بقطر الندى وبل الصدى، وانتهاءً بألفية ابن مالك. كما كان له عناية بإعراب القرآن.

وأبرز سمات منهجه في تدريس النحو، وكان يلهج بها دوماً عند ذكر اختلاف النحاة، اختيار الأسهل من الأقوال. وله في ذلك نظم:

والخلف إن كان فخذ بالأسهل   في النحو لا في غيره في الأفضل

وكان له دروس في الصرف، والبلاغة.

❋ سادساً: الأصول:

كان لشيخنا، رحمه الله، عناية فائقة بتحرير أصول كل فن؛ وضبط قواعده، كأصول الفقه، وأصول التفسير، وقواعد الأسماء والصفات، ومصطلح الحديث. وكثيراً ما كان يقول: من حرم الأصول، حرم الوصول. وكان يدعو الطلبة إلى معرفة القواعد الكلية للشريعة، وعدم الاقتصار على

جمع مفردات المسائل، دون نظر في المقاصد. ومن جهوده في هذا الصدد:

١ ـ شرح (القواعد الفقهية) لابن رجب الحنبلي، رحمه الله.

٢ ـ شرح (نظم الورقات في أصول الفقه) لشرف الدين العمريطي، رحمه الله.

٣ ـ نظم أصول الفقه في مائة وثلاثة أبيات، وشرحه لمنظومته.

٤ ـ شرح (البلبل في أصول الفقه) لابن عبد القوي الطوفي، الحنبلي، رحمه الله.

٥ ـ شرح (مقدمة التفسير) لشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله.

٦ ـ تصنيف (الأصول من علم الأصول) رسالة مختصرة في أصول الفقه.

٧ ـ تصنيف (أصول في التفسير).

٨ ـ تصنيف (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) وشرحها.

٩ ـ شرح (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر) للحافظ ابن حجر، رحمه الله.

١٠ ـ شرح (المنظومة البيقونية) في مصطلح الحديث.

١١ ـ تصنيف (مصطلح الحديث).

*** سابعاً: الآداب:**

كان الشيخ، رحمه الله، معلماً، ومربياً. وكانت دروسه معمورة

بالنصح والتوجيه. وكان شديد الحرص على الربط بين العلم والعمل، واستنباط الفوائد المسلكية، والعناية بتهذيب الطلاب، وتربيتهم على آداب العلم والطلب. وقد أفرد لهذا الأمر دروساً خاصة، بشرحه لكتاب (حلية طالب العلم) للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، حفظه الله.

❖ طلابه:

لقد كان فضل الله على شيخنا عظيماً، حيث بسط له في التعليم مدةً تبلغ نصف قرن، فتتلمذ عليه المئات من طلبة العلم ولازموه، ناهيك عمن انتفع بالجلوس بين يديه لفترات محدودة في المسجد الحرام، في شهر رمضان، أو المسجد النبوي، فهم ألوف. أما من استفاد من علمه عن طريق الأشرطة، والإذاعة، فلا يحصيهم إلا الله تعالى. ومرادنا هاهنا الصنف الأول الذين لازموه مدداً طويلة، فإنه يشق حصرهم، ويحتاج في ذلك إلى ديوان مستقل، وكثير منهم معروف مشهور. وهم على طبقتين:

١ ـ **طبقة المتقدمين**: وهم الذين تتلمذوا على يديه في الفترة الواقعة بعد وفاة شيخه إلى رأس القرن، ومنهم زملاؤه في الطلب على الشيخ عبد الرحمن السعدي، ومن انضم إليهم من أئمة مساجد عنيزة، وبلدات القصيم المجاورة. وكانوا قلة. وظلوا يتناقصون حتى آلوا، في نهاية التسعينيات الهجرية، إلى نحو عشرة، بل دون ذلك.

٢ ـ **طبقة اللاحقين**: وهم النشء الجديد الذي ظهر مع اليقظة العلمية التي عمت ديار المسلمين. فجعل الله أفئدة كثير من الشباب تهوي إلى العلماء الراسخين. فأقبل طلاب العلم على شيخنا، من أهل بلدته، عنيزة،

ومن بلدات القصيم، ثم وفد كثير من الطلاب للدراسة في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، من مختلف مناطق المملكة، بل ومن عديد من بلدان المسلمين؛ الكويت، واليمن، ومصر، والجزائر، والسودان، وأريتريا، وتشاد، وغيرها، وانتفعوا بعلمه، ونفع الله بكثير منهم في مناطقهم، وصارت النسبة إليه مدعاة قبول واعتزاز، لما كتب الله له من القبول العام. وتعداد هذه الطبقة ينيف على الخمسمائة. بارك الله فيهم جميعاً.

❖ مؤلفاته وآثاره:

عُني الشيخ، رحمه الله، بالتأليف منذ عام ١٣٨٠هـ، حين طبع لأول مرة كتابه: (فتح رب البرية بتلخيص الحموية)، ثم تلته العديد من الكتب النافعة المحررة، نيفت على أربعين كتاباً. هذا، فضلاً عما يحرره من أجوبة، وفتاوى، لأسئلة ترد عليه من أصقاع المعمورة. أما الدروس المسجلة بصوته، فتربو على (٥٠٠٠) ساعة.

ويمكن تقسيم تراث الشيخ العلمي من المؤلفات إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما قصد به التصنيف ابتداءً، ووضع له سن القلم على القرطاس: ويمتاز هذا النوع بالدقة والإحكام، وحسن العرض والتقسيم، والبعد عن الحشو والتكرار. ومن أمثلة هذا النوع الرصين:

١ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية.

٢ ـ مجالس شهر رمضان.

٣ ـ تسهيل الفرائض.

الثاني: ما استنسخ من الأشرطة المسجلة من الدروس، وجرت قراءته عليه وتصحيحه: ويمثل هذا النوع قدراً كبيراً من تراث الشيخ، رحمه الله. ومن أمثلته:

١ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد.

٢ ـ شرح العقيدة الواسطية.

٣ ـ الأجزاء الأولى من الشرح الممتع على زاد المستقنع.

الثالث: ما استنسخ من الأشرطة المسجلة، وحال الأجل دون قراءته عليه: وقد اعتنى به طلبته من بعده، وفق ضوابط رسمها، رحمه الله، في حياته، ولا زالت تخرج تباعاً تحت إشراف (مؤسسة الشيخ الخيرية). ومن أمثلتها:

١ ـ تفسير القرآن العظيم.

٢ ـ الأجزاء الأخيرة من الشرح الممتع على زاد المستقنع.

٣ ـ فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام.

وقد وفق الله تعالى أبناء الشيخ وإخوانه وخاصة طلابه، إلى إنشاء مؤسسة خيرية تعنى بإخراج تراث الشيخ العلمي، وتوثقه، وتصونه من العابثين والمتاجرين، بالإضافة إلى القيام بمجمل الأعمال التي كانت محل عناية الشيخ واهتمامه في مختلف ميادين الخير والبر والإحسان، جعل الله ذلك صلة في عمره، وبركة في أثره، وبراً من أهله وذويه. وقد أصدرت المؤسسة، حتى الأن، أكثر من ثمانين كتاباً، ورسالة، ومطوية، من مؤلفات، ودروس، وخطب، ولقاءات. ولا زال العمل جارياً على قدم وساق.

❖ عبادته:

كان رحمه الله من العباد الدائمين، العاملين الثابتين. عرفه الناس في عنفوان شبابه، وأوج فتوته، بسيما السجود التي تلوح في جبينه ن مما ينبئ عن طول التهجد والقنوت ومجافاة المضاجع في الأسحار.

كانت صلاته مطمئنة، يتحرى فيها السنة. يطيل القراءة في صلاة الفجر، ويستغرق ما بين ثنتي عشرة دقيقة إلى خمس عشرة دقيقة في صلاة الظهر، ويجعل العصر دون ذلك، ويخفف المغرب، ويتوسط في العشاء. وكان في قراءته خشوع وحزونة، لا يتكلف في أحكام التجويد ومخارج الحروف. يطمئن في الأركان؛ من ركوع، وسجود، وجلوس. وكان يجهر بالأذكار في أدبار الصلوات المفروضة جهراً بيناً، ولا يقطعها لسؤال سائل، أو عارض شاغل، بل يرجئ ذلك حتى يفرغ من أذكاره. فإذا فرغ، أقبل على سائليه؛ الأول فالأول، فقضى حاجتهم.

وكان يصلي الرواتب في بيته، إلا ما ندر، وينقل الخطى إلى المسجد ذهاباً وإيابا، ولا يركب إلا لعارض، ليحصل أجر المشي، وليتمكن الناس من سؤاله، وليقرأ عليه بعض الطلبة ما يرغب في مراجعته وتصحيحه. وكان في طريقه يلقي السلام، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. وربما قرأ بعض حزبه من القرآن في طريقه إلى المسجد. وحدثني الثقة عنه أنه قال: ما تركت الاغتسال للجمعة صيفاً ولا شتاءً.

وكان يصلي التراويح إحدى عشرة ركعة مطمئنة، في مدة تربو على الساعة. ويطيل في صلاة الكسوف. وقد حدثني الثقة أنه صلاها خلفه ذات

مرة ثلاث ساعات. وكان يخطب بعدها خطبةً مؤثرة.

وكان، رحمه الله، صواماً، يتحرى الأزمنة الفاضلة؛ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وست من شوال، وعشر ذي الحجة، وعاشوراء. ولا يمنعه من ذلك كثرة أشغاله وأسفاره.

ومنذ عام ١٣٩٢ صار يحج كل سنة، لمسيس الحاجة إليه في الفتيا، والإرشاد. أما عمراته فلا تكاد تحصى.

وكان في جميع عباداته شديد التحري للسنة، لا يخاف في اتباعها لومة لائم. وكان كثير التنبيه للطلبة، وللناس على أهمية استحضار نية الامتثال لله ورسوله، وتحقيق الإخلاص والمتابعة. وتلك والله العبادة الحقة، والتدين النقي.

❖ ورعه وتعففه:

كان شيخنا، رحمه الله، عف اللسان، شديد الوعي والضبط لأقواله. إذا بلغته مقالة، أو تصرف، عن أحد، اجتهد أن يعتذر له، قائلاً: لعله أراد كذا.

ومن ورعه أنه صدر قرار بتعيينه قاضياً لمحكمة الأحساء، من قِبَل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، فاستعفى. وبعد عدة محاولات تم إعفاؤه.

وكان شديد التحرز، أن يدخل عليه مال، أو منفعة، يرى أنه لا يستحقها. ومن شواهد ذلك:

١ ـ كان إذا تغيب عن إمامة الجامع، لسفر أو نحوه، بذل ما يقابل جُعْل الإمامة لمن استخلفه.

٢ ـ كان إذا تأخر عن الدوام، إبان تدريسه في المعهد العلمي، بضع دقائق، أثبت ذلك في سجل الحضور والانصراف، وكتب أمامه: (بدون عذر).

٣ ـ أهدى إليه الملك خالد بن عبد العزيز، رحمه الله، مبلغاً كبيراً من المال، وتلطف في إيصاله إليه، فرده الشيخ ردا جميلاً، إن شاء الملك، حفظه الله، أن أتولى توزيعه في أوجه الخير فعلت.

٤ ـ حين تولى الأمير عبد الإله بن عبدالعزيز، حفظه الله، إمارة منطقة القصيم، كان يعقد مجلساً لكبار المشايخ في المنطقة، وعلى رأسهم شيخنا، بصفة دورية. ولم يكن عند الشيخ حينذاك سيارة خاصة، فأهداه الأمير سيارةً، وألح عليه بقبولها، فقبلها بصفة مؤقتة، لم تتجاوز شهراً واحداً. وصار لا يستقلها إلا في موعد اللقاء المذكور.

٥ ـ حين عين، رحمه الله، على المرتبة الممتازة، التي من مميزاتها تعيين سائق، وتخصيص سيارة، ظل لا يستعملها إلا في التنقلات المتعلقة بالعمل. وكذلك كان يفعل حين كان سائق المعهد العلمي ينقل فضيلته إلى كلية الشريعة وأصول الدين على مشارف مدينة بريدة. فاحتاج مرةً أن يشتري آلة تصوير من إحدى المحلات داخل بريدة، فطلب من أحد خاصة تلاميذه أن يوصله إلى مقصده، ويعيده إلى حيث سيارة المعهد، لأنه رأى أن ذلك من قبيل الحاجة الشخصية، وليس لمصلحة العمل.

٦ ـ وأذكر في إحدى جلسات مجلس إدارة جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية بمحافظة عنيزة، التي كان يترأسها من حين تأسيسها إلى وفاته، رحمه الله، أن اقترح أحد الأعضاء إضافة لوحة للجمعية بأحرف نحاسية بارزة، وأيد المجتمعون الفكرة. لكن الشيخ، رحمه الله، تحرج من صرف مبلغ كبير نسبياً في هذا الشأن، وقال: نحن، يا إخوان، مؤتمنون على هذه الأموال والتبرعات، فإن رأيتم أن نتحمل المبلغ مساهمةً منا، نحن أعضاء المجلس. فوافق الجميع.

٧ ـ حصل أثناء انعقاد دورة هيئة كبار العلماء في الرياض، أن دُعي الشيخ في عطلة نهاية الأسبوع الأول من اجتماعات الهيئة إلى إلقاء محاضرة في جدة، على الطلبة الذين سيبتعثون إلى الخارج. وبعد فراغه من المحاضرة قدمت له الجهة المعنية شيكاً لقاء مشاركته، فأبى أن يقبله، معللاً ذلك بأنه خلال هذين الأسبوعين منتدب لاجتماعات الهيئة، ولا يستقيم أن يقبل شيئاً، وهو محسوب عليها، فيجمع بين مكافئتين.

ألا ما أحوج الأمة إلى هذه النماذج النزيهة، النقية، المترفعة عن لعاعة الدنيا، والتنافس على حطامها، لا سيما في علمائها الذين هم قدوتها الحية، كما كان شيخنا، رحمه الله. ومع ذلك فقد أتته الدنيا راغمة، وحصل له من الشرف والرفعة عند الولاة وعند الناس، ما لم يسع إليه. فأين المعتبر!

❖ حياته العملية:

عين مدرساً في (معهد عنيزة العلمي) عام ١٣٧٤هـ، وظل مدرساً به قرابة ربع قرن؛ حتى ١٣٩٨هـ، فتربى على يديه أجيال متتابعة من أبناء

عنيزة. وقد تخللها فترات فُرِّغ فيها لتأليف بعض المقررات المدرسية للمعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام.

ولي إمامة وخطابة الجامع الكبير في عنيزة، والتدريس فيه، بعد فترة وجيزة من وفاة شيخه عبدالرحمن السعدي، عام ١٣٧٦هـ، بترشيح من قاضي عنيزة ذلك الوقت، الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، وغيره. رحم الله الجميع.

تولى التدريس بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، منذ العام الدراسي ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩هـ حتى وفاته. وانتفع به خلق كثير من الطلاب والأساتذة، من شتى أنحاء المملكة.

أسس مع ثلة من طلابه ومحبيه (جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة) عام ١٤٠٥هـ، وتولى رئاستها إلى وفاته، رحمه الله. وكان سبباً في جريان كثير من الأوقاف والتبرعات عليها. وقد خرجت الجمعية خلال حياته مائة وستين حافظاً، وخمسة عشر حافظة.

عين عضواً في (هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية) عام ١٤٠٧هـ. كما شارك في العديد من اللجان، والمجالس المتنوعة.

وإلى جانب أعماله اليومية الراتبة من إمامة و تدريس وفتيا، كان ملتزماً بجملة من اللقاءات الدورية؛ أسبوعية، وشهرية، وسنوية، خاصة، وعامة. فمنها:

١ ـ لقاء (الباب المفتوح) في منزله، ضحى كل خميس.

٢ ـ لقاء (خاصة طلبة العلم) كل ليلة سبت، في منازلهم.

٣ ـ لقاء (قضاة القصيم) كل ليلة أربعاء في منزله.

٤ ـ لقاء (مجلس جمعية تحفيظ القرآن) ليلة الاثنين، كل أسبوعين، بمقر الجمعية.

٥ ـ لقاء (طلبة العلم المغتربين) ليلة أول أحد من كل شهر، في سكن الطلبة.

٦ ـ لقاء (منسوبي قسم العقيدة بكلية أصول الدين) ليلة ثاني أحد من كل شهر.

٧ ـ اللقاء الشهري: ليلة ثالث أحد من كل شهر، في الجامع الكبير بعنيزة.

٨ ـ لقاء (منسوبي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة) ليلة رابع أحد، من كل شهر، في إحدى الاستراحات.

٩ ـ لقاء (خطباء الجمعة في مدينة عنيزة) ليلة ثاني ثلاثاء من كل شهر، في إحدى الاستراحات.

بالإضافة إلى بعض اللقاءات السنوية التي كان يرتبها لأهالي بعض المدن المجاورة لعنيزة، هذا سوى اللقاءات العارضة، من مؤتمرات، وندوات، وحفلات عامة.

وبالجملة، فقد كانت حياته، رحمه الله، حافلةً بالعطاء، وكان حضوره قوياً في الساحة العلمية، والاجتماعية. نافعاً أنى توجه، مباركاً أينما حل. مثله مثل الغيث، حيثما حل نفع.

❖ أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر:

كان منهجه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مؤسساً على العلم، والرفق، والحكمة، والنظر في عواقب الأمور ومآلاتها، وتقدير المصالح والمفاسد، والمراجحة بينها. فكان إذا بلغه أمر من الأمور عن كاتب، أو مفت، أو مسؤول، تثبت من الأمر أولاً. فإذا ثبت عنده لم يشعه، ولم يتحدث به في المجالس، أو على المنابر. بل يبادر بالاتصال بصاحب الشأن؛ فيستدعيه إن كان قريباً، ويكاتبه، أو يهاتفه، إن كان بعيداً، ويستوضح الأمر منه، ويدعوه للرجوع، ويناصحه بما يقتضيه المقام.

ونظرته في ذلك ثاقبة، وغرضه نبيل؛ إذ يرى، رحمه الله، أن رجوع المخطئ عن خطئه من تلقاء نفسه، وباقتناعه، أجدى في دفع المنكر من المنابذة والتشهير. فهو لا يريد، رحمه الله، الشهرة، والتزين أمام المتحمسين من ذوي الغيرة، وإنما شعاره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وكم كتب، رحمه الله، لعدد من الكتاب والصحفيين، وهاتف بعض المسؤولين في أمور لا يعلمهن كثير من الناس، فكتب الله على يديه خيراً كثيراً، ودفع شراً مستطيراً.

وقد أكسبته هذه الطريقة في التعامل مع المنكرات النازلة، احترام الخاص والعام، وإن كانت تثير أحياناً سخط بعض المتحمسين. وكان يحتمل منهم بعض الأذى، تقديراً لغيرتهم، ورغبةً في جمع الكلمة، ودرء الفتنة، فيتبينون لاحقاً صواب طريقته، ويجددون مودته، ويخضعون لأناته.

وكان من منهجه إذا جاءه الرجل يخبره عن منكر واقع، أن يظهر له

الاهتمام، واستعظام الأمر، حتى وإن كان قد بلغه، لئلا يهون المنكر في نفس محدثه لو أظهر العلم به. ثم يوجهه بما يراه مناسباً لحاله.

❖ موقفه من القضايا العامة:

عصفت بالأمة الإسلامية، إبان حياة الشيخ، العديد من النوازل، على المستوى المحلي، والإقليمي، والعالمي. وقد كان لديه قدر كافٍ من المتابعة الإعلامية، من خلال الاستماع إلى نشرات الأخبار عن طريق المذياع، والإصغاء إلى حديث الناس وردود أفعالهم المختلفة. وكانت له رؤيته الخاصة، وتحليله المستنير بنور الكتاب والسنة.

وكما أسلفنا، في أول الترجمة، فقد اتسمت الحياة السياسية في وقته بالاستقرار، والأمن، منذ إعلان توحيد البلاد تحت مسمى (المملكة العربية السعودية). ولعل أبرز حدثين على المستوى الداخلي جريا في زمنه هما: حادث الحرم، حين اقتحمت فئة ضالة المسجد الحرام، واحتلته بقوة السلاح، مستهل سنة ألف وأربعمائة. والثاني: غزو النظام البعثي في العراق لدولة الكويت، وما نتج جراء ذلك من اختلافات وفتن. فكان موقفه في الأمرين: لزوم جماعة المسلمين، وطاعة ولاة الأمر، وموافقة هيئة كبار العلماء. هذا مع الحرص التام على جمع الكلمة، ورأب الصدع، ومعاملة المخالف بالرفق واللين الذي يهديه ولا يستعديه. فخرج من الفتنتين، سالماً بفضل الله، بسبب إخلاصه، واعتصامه بالكتاب والسنة.

وأما على المستوى الإسلامي العالمي، فقد كانت قضايا المسلمين في فلسطين، وأفغانستان، والجزائر، والبوسنة والهرسك، والشيشان،

تشغل باله، وتثير همه، وتستجلب دعاءه في قنوته، وخطبه.

وتقديراً لجهوده في الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين، في الداخل والخارج، نال الشيخ، رحمه الله، جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ.

❖ صفاته الشخصية:

❋ أولاً: الذكاء:

كان رحمه الله، ذكياً، لماحاً، شديد الفطنة للكلمات، والتصرفات، سريع التصور لما يلقى عليه من الأسئلة، سيما فيما يحتاج غيره إلى وقت وتكرار لفهمه وتصوره، كمسائل المعاملات المصرفية، ومسائل المواريث، والرضاع، ونحوها. كما كان قوي الحاضرة لما يريد تقريره من تقسيمات، وتعريفات، ومقالات. لا يصطحب أوراقاً أثناء الدرس، سوى المتن المقرر. وكانت إجاباته، وفتاواه، مستوعبة لما في السؤال، آتية على ما قد يقع في نفس السائل من إيرادات، وخطرات.

❋ ثانياً: الصبر:

أوتي شيخنا، رحمه الله، صبراً، وجلداً، ودأباً، قل نظيره في العاملين. فمن ذلك:

١ ـ صبره على القيام بالوظائف الدينية الراتبة، من إمامة، وخطابة، وتدريس، على مدى خمسة وأربعين عاماً، دون كلل أو ملل، مع انضباط تام بالمواعيد. وكان يبذل جهداً مضاعفاً في موسم الحج، وأثناء إقامته

بمكة في رمضان، لا يطيقه أشداء الشباب، من الدروس المتوالية، واللقاءات، والإجابة على الاستفتاءات المباشرة والهاتفية، وتلبية الدعوات، وبذل المساعدات. ولا يكاد ينام إلا قليلاً.

٢ ـ صبره على ما يلقى من الأذى: لقي الشيخ، رحمه الله، ما يلقى أولياء الله، وأتباع المرسلين، من صنوف الأذى. ففي حقبة الثمانينيات والتسعينيات الهجرية، كانت تسود في أوساط بعض المثقفين من مواطنيه، الاتجاهات المنحرفة؛ من قومية، وناصرية، وبعثية، فاتخذوا العلماء والمصلحين غرضاً للسخرية والنبز في مهاتراتهم. كما لقي من بعض مخالفيه المنسوبين إلى العلم أو الدعوة نوع شغب، في مواقف عدة، يطول شرحها. فصبر واحتسب، وجعل الله العاقبة له.

٣ ـ صبره على المرض: فقد ضرب رحمه الله، أروع الأمثلة في الصبر والتجلد والرضا بمر القضاء، حين نزل به المرض الأخير، وحاول أن يسري عن أهله وذويه، ولا يظهر الشكوى والألم. وقد سأله بعض بنيه في شدة مرضه هل يتألم؟ فأجاب: نعم ثم استدرك قائلاً: نعم، إخباراً، لا شكاية. رحمه الله.

❋ ثالثاً: الحزم:

كان رحمه الله، حازماً في جميع أموره؛ لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد، بل يبادر بالقطع في الأمور، ولا يدعها معلقة. ولا ريب أن هذا الخلق يعين الرجل الجاد على قضاء حاجاته، وحاجات الناس، فلا تتراكم عليه، فينوء بحملها.

❊ رابعاً: الهيبة:

كان رحمه الله، مهيباً هيبةً طبيعية، بسبب قوة شخصيته، وترفعه عن سفاسف الأمور، وزهده فيما يتنافس فيه الناس. فإذا حل في مجلس أقبل عليه الناس، فإذا تكلم أنصتوا، ولم يتقدم أحد بين يديه.

وكان شديد الضبط لطلبته، مذ كان معلماً في المعهد العلمي، ثم في الجامعة، فضلاً عن درس الجامع، فلا يعبث أحد بحضرته، ولا يقاطعه، أو يستدرك عليه، أو يتشاغل بشيء في حضرته.

ولم يكن أحد يطمع بأن يستغله بعطية لا يستحقها، أو تزكية ليس أهلاً لها، أو ترويج مقالة لا مستند لها، لعظيم هيبته، ووفور عقله.

ولعل مما يصاحب الحزم، والهيبة، ونحوهما من صفات القوة، لدى كثير من أهل العلم والدين وأرباب الغيرة والحمية، حصول حدة في الطبع. وقد كان يعتري شيخنا شيءٌ من ذلك، أحياناً، فيغالبه. وكان يعلم هذا من نفسه، رحمه الله، ويذكره على سبيل الاعتذار العام. وربما اعتذر لبعض من جرى معه نوع مخاشنة. وكثير منه كان من قبيل الغضب لله ورسوله، وأراد به تربية من جانَب الصواب. وبالجملة، فهو نزر يسير مغمور بجنب فضائله، غفر الله له.

❊ خامساً: الرحمة:

كان رحيماً بالضعفة، والمساكين، والفقراء، والمدينين؛ يعطيهم، ويقضي ديونهم، ويعين راغبي الزواج منهم، مع حزم يمنعهم من التمادي في المسألة، وبذل ماء وجوههم. وإنما قصده بذلك منفعتهم، وإن ظن

بعض الناس غير ذلك. وقد حدثني أنه رأى شيخه عبد الرحمن السعدي في المنام، بعد موته بليال، على حال حسنة، فسأله: ما أعظم ما نفعك عند الله؟ فقال: نفع الخلق، أو قال: الإحسان إلى الناس.

وكان محباً للأطفال؛ يداعبهم، ويضاحكهم، ويقبلهم، ويأنس بهم، ويطرب لبراءتهم. وفي ذات الوقت يعلمهم من الآداب ما يقتضيه المقام، بعبارة تتسع لها مداركهم.

❋ سادساً: البساطة والتواضع:

كان من أوضح صفاته الخلقية محبة البساطة، وكراهية التكلف في كل شيء:

١ ـ في ملبسه: فيلبس الملابس النظيفة، دون سرف، ويتجمل في الأعياد، والجمع، والمناسبات.

٢ ـ في مسكنه: فقد قضى عمره في بيت طيني متوسط، ولم يتحول منه إلا في العقد الأخير من حياته، تقريباً، إلى مثل بيوت أوساط الناس.

٣ ـ في منطقه: كان كلامه فصلاً بيناً، يحدث الناس بما يفهمون، ويكره التفاصح والإطراء من محدثه.

٤ ـ في مطعمه: فلا يتكلف خلاف ما جرت به العادة. وكان يأمرنا إذا استضفناه ألا نزيد على صنفين. وفي بعض الاجتماعات يأمر بالاقتصار على صنف.

٥ ـ في تعامله: فلا يبالغ في المجاملات، والتحسب للمناسبات، والتكلف في العلاقات. بل يسير سيراً طبيعياً دون جفاءٍ أو رهق. وكان

يجيب الدعوة، إذا قدر، لكل من دعاه، أو يعتذر بما يطيب نفسه.

وأحسب أن هذه الخصلة، كانت من أهم أسباب دوامه على مهامه بيسر وسهوله.

*** سابعاً: الدعابة وحسن المعاشرة:**

كان فيه رحمه الله، دعابة لطيفة، محببة، مع من يعاشرهم من خاصة طلبته، وأصحابه. وكان يجعل لأحاديث المؤانسة، والقصص اللطيفة حظاً من مجلسه، ويدخل السرور إلى محدثه. وكان يخرج مع الطلبة، إبان تدريسه في المعهد العلمي، ومع طلبة السكن التابع للجامع الكبير، لاحقاً، إلى المنتزهات، ويسابقهم، ويسبح معهم، ويؤانسهم.

*** ثامناً: النظام:**

من الجوانب التي تخفى على كثير من الناس أن الشيخ، رحمه الله، يملك حساً إدارياً مرهفاً، وأداءً تنظيمياً مطرداً. يتضح ذلك من خلال الشواهد التالية:

١ ـ كان يعتمد الترتيب الإداري الهرمي في مخاطبة الجهات والمسؤولين؛ فلا يتعدى المسؤول الأدنى إلى المسؤول الأعلى، بل يحافظ على المقامات، وينزل الناس منازلهم. فإذا أعيت الأمور استأذن المسؤول المباشر، أو أعلمه أنه سيخاطب غيره. كل هذا مع علو منزلته، وعظم جاهه، عند ولاة الأمر.

٢ ـ عملت معه في مجلس إدارة جمعية تحفيظ القرآن، قرابة خمس عشرة سنة، فكان لا يستبد برأي، ولا ينفرد بقرار، بل يدير الأمر شورى

بين أعضاء المجلس، فإذا جرى اختلاف في وجهات النظر، حسمه بالتصويت، وأخذ برأي الأكثر، ولو على خلاف رأيه. وربما أتاه آتٍ في المسجد، أو في المنزل، فكلمه في شيء من أمور الجمعية، فلا يزيد على أن يحيله إلى إدارة الجمعية، دون أن يقطع له بقرار دون المجلس.

٣ ـ رتب للطلبة المغتربين، المنقطعين للدراسة وطلب العلم في عنيزة سكناً، وجعل على السكن مسؤولين، ووزع عليهم المهام، لينظموا شؤونهم، ويتلمسوا حاجاتهم.

٤ ـ ضبط مواعيده وارتباطاته بطريقة لا أعلم أنه سبق إليها، كما تقدم ذكره في مسرد لقاءاته الدورية.

٥ ـ اقتنع، رحمه الله، في أخريات عمره، أن يتخذ مكتباً خاصاً، يعينه على ترتيب أموره، وتنسيق مواعيده، وموقعاً على شبكة الإنترنت، لتسهيل الاتصال به، ونشر مؤلفاته، وفتاويه. ورسمت لذلك خطة عمل من قبل بعض طلابه ومحبيه، وكلف ابنه عبد الله باتخاذ الترتيبات اللازمة للمكتب، وقد شرع فعلاً بذلك، واستصدر ابنه عبدالله إجازة طويلة من عمله للسعي في هذا الغرض، إلا إن مرض الشيخ، ووفاته حال دون إتمامه. وأرجو أن يكون ما هدى الله إليه أبناءه، وإخوانه، وخاصة طلابه، من إقامة (مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية) ترجمة لتلك القناعة، وامتداداً لأعماله الصالحة.

❖ مرضه ووفاته:

أظهرت الفحوصات الطبية التي أجراها، رحمه الله، في شهر ربيع

الأول من عام ١٤٢١هـ، وجود ورم سرطاني في المستقيم، وظهور خلايا سرطانية في الكبد والرئتين، فتلقى الأمر برضىً ويقين، وكان يقول لبعض من يلح عليه في السؤال عن حاله: (اشتقنا لله ورسوله). واستمر في دروسه الصباحية والمسائية.

توجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ظهر يوم السبت الموافق للسابع والعشرين من شهر ربيع الآخر، تحت إلحاح ولاة الأمر المشفقين عليه، لإجراء مزيد من الفحوصات. وهناك حاضر، وخطب، وأفتى، في المراكز الإسلامية.

عاد بعد عشرة أيام، يوم الثلاثاء الموافق للثامن من شهر جمادى الأولى، ونزل في الطائف، وأم الناس، وخطب فيهم يوم الجمعة التالي لمقدمه، في مسجد العباس بالطائف، ثم شارك في اجتماع هيئة كبار العلماء في الأسبوع التالي.

توجه إلى الرياض، ومنها إلى عنيزة، فوصلها ليلة الخميس الموافق للرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى، وصلى بها الجمعة، بعد غيبة قاربت شهراً. ثم عاد إلى الرياض يوم السبت، وشرع في العلاج بالأشعة.

ظل يتردد بين الرياض وعنيزة، وكانت آخر جمعة صلاها في جامعه في عنيزة، آخر جمعة في شهر جمادى الآخرة الموافقة للثلاثين منه. ثم صلى بالناس صلاة الاستسقاء يوم الاثنين الموافق للثالث من شهر رجب، وغادر عنيزة، مسقط رأسه، ومرتع صباه، ومدرج عزه، ودوحة علمه، وموطن أهله وحبه، إلى غير رجعة، وكأنها أم انتزع منها فلذة كبدها، فأمست في لوعة وأسى.

بقي في مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض يتلقى العلاج، والناس على اختلاف طبقاتهم، يعودونه زرافات ووحداناً، ويهاتفونه وقلوبهم تتدفق حزناً ووجداناً، والمرض ينال منه، وهو ينال من مراتب الصبر والاحتساب، وقلوب محبيه تعصف بها الآمال والآلام، والشائعات تقبل وتدبر، والرؤى تسر أحياناً، وتسوء أحياناً.

وبعد مضي أسبوع من شهر رمضان، أوى إلى بيت الله الحرام، فأفرد له جناح فوق باب العمرة، فدرَّس من خلال المكبر، جرياً على عادته السنوية، بضع ليال، من وسط الشهر وآخره، جرياً على عادته السنوية، بصوت ضعيف متهدج، حتى اشتد به الحال آخر الشهر، فنقل إلى جدة، فلما آنس نوع تحسن ألح في العودة إلى بيت الله، فحمل والمغذيات موصولة به، فشهد آخر ليلة من رمضان.

خرج يوم العيد إلى جدة، فبقي في المستشفى التخصصي، إلى أن وافاه الأجل المحتوم، ففاضت روحه إلى بارئها، مع مغيب شمس يوم الأربعاء، النصف من شوال، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف، في مدينة جدة.

احتشد الناس، من طلابه ومحبيه الذين قدموا على عجل من كل مكان للصلاة عليه في المسجد الحرام، والساحات المحيطة، بعد صلاة العصر، من يوم الخميس، في جنازة مشهودة، ودفن في مقابر العدل بمكة المكرمة، غير بعيد عن قبر شيخه، وأخيه عبد العزيز بن عبد الله بن باز. رحمهما الله رحمة واسعة. وجلجلت المنابر يوم الجمعة بذكر مناقبه، والدعاء له، ثم أديت صلاة الغائب عليه في مساجد المملكة وغيرها.

وطويت صفحة عالم جليل من علماء الإسلام، ووري الثرى، لكن علمه لم يتوارى. انقطع أجله، ولم ينقطع عمله، بما ورث من صدقات جارية، وعلوم نافعة، وأبناء بررة يدعون له. فقد خلف، رحمه الله، ثمانية أولاد أشقاء؛ خمسةً من البنين، هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم، وثلاث بنات. جعلهم الله خليفةً صالحة. وتوفي عن زوجةٍ واحدة، هي الفاضلة أم عبد الله، أم جميع أولاده، نورة بنت محمد التركي، حفظها الله. وله أخوان فاضلان، هما الدكتور عبد الله، والشيخ عبد الرحمن، حفظ الله الجميع.

اللهم اغفر لشيخنا، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه، ونور له في قبره، وافسح له فيه. واجمعنا به في جناتك جنات النعيم، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه، بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه: تلميذه:

د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

عنيزة. في غرة رجب ١٤٢٦


المُشير
مركز المشير
للاستشارات التعليمية و التربوية